

مائة صورة من الحياة

للأستاذ علي الطنطاوي

٨ - سائل

في ميدان (الرجة) أكبر ميادين دمشق وأهمها ، وفي محطة (الترام) أظهر بقعة في ذلك الميدان وأحفاها على ضيقها بالناس ، سائل طويل بأن الطول ، أعمى قبيح العمى ، يقوم حيال عمود الكهرباء وكأنما هو لطوله عمود ثمان ، لا يريم مكانه ولا يترشح عنه ، ولا يفارقه لحظة من ليل أو نهار ، فهو أبداً يزحم الناس بمنكبه الضخم المريض ، وثوبه الدنس القذر ، ويؤذهم بصوته الأجش الخشن ونغمته القبيحة المملة ، وكلماته التي لا تتبدل ولا تنغير : (من مال الله يا أهل الخير ، والله جوعان ! الله لا يجوعكم والله كاس العمى صعب ...) لا يكف لسانه عن ترديدها ، كما أن لسان صبيه الذي يحمله دائماً لا يكف عن البكاء والدويل ..

و كنت أسراً بالميدان نهاراً ، وآتية نصف الليل ، وأجى تارة عند طلوع الشمس ، فأجد ذلك السائل قائماً في الحالات كلها بجانب العمود ، وكفه مبسوطة كأنها طبق ... ولسانه ولسان صبيه عاكفان على السؤال والبكاء ، كأنما هما اسطوانة تدور دائماً وأبداً لا كلال ولا ملال ... فكنت أتألم منه حيناً وأتقم من الشرطة أنها لا تباليه ولا تحفل مكانه ، وأشفق عليه حيناً فأعطيه من بعض ما أجد حتى رأي رفيقي فلان ، فقال لي :

— ماذا ؟ أعطى مثل هذا ؟

— قلت : ولم لا أعطيه وهو أعمى مسكين ، يسأل الليل والنهار لا يفتر ؟ فلو كان سؤاله تسييحاً لكان من اللانك ... ويفهم أبداً أنه جائع ، وولده على كتفه يبكي من الجوع ... فأضن عليه بقرش واحد يقيم به صلبه ؟

فضحك رفيقي وقال :

— لا هو بالجائع ، ولا الولد ولده ، وإنه لأغنى مني ومنك ..

— قلت : هذا لا يكون

— قال : فتعال مني ...

ودنا من السائل ، فهمس في أذنه ..

— يا أبا فلان ؟ ألا تؤجرنا دارك التي في (الشارع) ؟

بينهما من الخشوع الذي لا يسبح وجوده في هذا العلم ، بل لا يصح وجوده في العلوم كلها

والحق أن كل مذهب إليه في إصلاح الاعراب من القوة بحيث لا يمكن معارضته ، ولولا تمت هذا العصر وجوده وجب حربه لكان له شأن عندنا غير هذا الشأن ، ولوجد من إنصاف العلماء ما يؤثره على مذهب القدماء في الاعراب ، وإنه لا يهمننا هذا الجحود والجود ، لأننا بما نكتب في الإصلاح إنما نرضى به أنفسنا قبل كل شيء ونقوم بما نمتقده واجبا علينا ، ولا يبنى هذا الجود والجحود إلا على الأمة التي ترضى به ، ولا تحاول التخلص منه بمد أن صار بها إلى ما صارت إليه

وها هي ذي آتستنا الفاضلة تشهد بقيمة هذا الإصلاح الذي أنبأنا به ، ولكنها تقع بمد هذا في سهو ظاهر تنقص بهما هذه الشهادة ، والذنب في ذلك عليها لا علينا ، لأن ماظنته تناقضا في كلامنا لا حقيقة له

فقد بنت هذا التناقض على أننا قلنا في مقالنا الرابع إن الحرف لاحظ له من الاعراب أصلا ، ولورجعت الآنسة الفاضلة إلى هذا المقال لوجدت أن هذا ليس من قولنا ، وإنما هو من قول الجمهور في الرد على الفراء ، إذ يذهب إلى إعراب الحروف إعرابا عاليا ، ويتفق مذهبنا مع مذهبه في ذلك إلى حد ما . ولسنا من الغفلة إلى حد أن نذهب في أول مقال لنا إلى إعراب الحروف إعرابا ظاهرا ، ثم نمود فنقول في المقال الرابع إن الحروف لاحظ لها من الاعراب أصلا

وكذلك لم توفق آتستنا الفاضلة حين أنكرت علينا مخالفتنا فيما أنبأنا به من تطبيق الاعراب المعروف في مذهب الجمهور ، لأنه لا حرج علينا في ذلك أصلا ، ونحن لم نأت بهذه التطبيقات إلا لنبين للناس مقدار هذه المخالفة ، وليس من المعقول أن نخالف الجمهور في قواعد الاعراب ثم تجري تطبيقنا على مذهبهم لا على مذهبنا

فلا تناقض إذن في كلامنا ، ولا شيء يمنع آتستنا لنا من أن نجعل : يادتها لدراستنا خالصة مطلقة

(أزهري)